

التربية الاوربية^(١)

سادتي الاخوان الاعزة :

او عز الي بعض اعضاء هذا المنتدى الكريم ان احدثكم بما رأيت في رحلتي
الاخيرة الى اوربا فلم تسعني مخالفتهم لان الطلاب اعزة وتبادل الافكار
معهم من اشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للاحاطة
باطرافه كله ولا اوقات الحضور الكرام الى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه
في هذه الليلة على الاشارة الى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم
الحضارة الاوربية في اماكنها واستطلاع طلعيها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها
بالنظر مدة ٠ ولذا استميج عفوك اذا لحظتم في اقوال شيئا مما لم يعتد بعظكم
سماعه فانا أقص عليكم شعوري ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج
على الشعراء ٠

اول ما يقع عليه نظر الداخل الى ارض اوربية ذاك الانتظام التريب
في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لاول وهلة على نموذج صالح من استبحار
ال عمران هناك بل يتجسم في عينه وذهنه ما سعت اليه ولا تزال تسعى تلك
الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكميل العلمي
والنشوء الاجتماعي، والعملية ٠

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر السائح كلما طاف
المعاهد وزار لمشاهد وجلال في القرى والديساكر والخواضر والقواعد ٠ وكل

(١) خطاب القياة في المنتدى الادبي في الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب

فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه الى مجلد بواحدة حتى يتجلى للسامع بعض التجلي وما رآه كمن سمع ما
 ماذا اذكر لكم ايها الاخوان من حال اوربا ومدنية الغرب الراقية التي
 بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل ؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهير
 النفس ؟ او باتساع متاجرها التي لا يحصىها العد ؟ او بارتفاع زراعتها التي
 تنادي بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية ؟ ام اذكر لكم حال
 الجماع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والقبابات التجارية والصناعية
 ام المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية ام المتاحف والمعارض
 والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف اليها في اوقاتنا واجتمع برجال العلم
 والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل ونفسي تتأثر بتغير
 المشاهد بحيث تملك علي مشاعري فلا استطيع التفريق في الحسنتات كأنني
 ابتليت بداء الاستحسان لاتقع عيني على شيء ولا أسمع اذني بشيء ولا
 يتصور ذهني اقل شيء الا واخذ به جملة وتغرق النفس في استحسانه وتبحر في وصفه
 ولقد كنت عازمة ان ادون في مفكرتي ما يعرض لي من المظاهر والمناظر
 ويتردد في صدري من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب
 والدروس والواذر ولما كثرت علي الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت
 انك يا هذا تكنتني متى عدت لتحدث قومك بما رأيت من تسجيل ما يعلى
 في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية .

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصديق قول الشاعر
 تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

لولا ان اليأس من اعظم الامراض في الافراد والجماعات لطاومت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاعة الغرب ولولا انني اعتقد بان النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وان الأجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بان قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتشاقلة البطيئة التي شهدناها امر متعذر الا بعد قرون ان كتبت له الحياة. ولكن امامي مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت اكبر الدول الاوربية في ثلاثين سنة وفاقته من كانت تعمل منذ ثمانية سنة من الدول الغربية فباغت درجة عالية من الحضارة

نعم ان اليأس يجب ان لا يتطرق البنا وان كنا وبالاسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤونه حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية بصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا انواع الارباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل مالهيم من ذرائع العلوم والفنون ونحن منهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده او جاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء اربعين عالماً من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل اسبوع في العلم الذي اخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من اراد فتدل على كرم الفرنسيين في العلم

وحضرت دروساً في مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم ار - في اكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه

اذكر لكم عَلَى سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم ابنائه علينا ولكم بعد ما ان تقيسوا حاضريهم بمحاضرنا وغابريهم بنابرنا وتضحكون بعدها او تبكون .

فالمحاضرة الاولى كانت في قاعة السوربون الكبرى اي كلية باريز وهي المكان الذي جرت العادة ان يكون معهد الماملين للعلم من الفرنسيين فاقامت جمعية آسيا الفرنسية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء باعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من اعضاء الجمع الفرنسي ولم يكن الحضور اقل من الف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو استاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسية في الشرق الاقصى . شرح في محاضراته ما لاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي واتى عَلَى ما وفق اليه من الاكتشافات الاثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هنالك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذلك التعصب ان اتى عَلَى الآثار بحملتها . وقد قرع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة انواع التفرع . اما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وافريقية فيكونون مقدمة للفتح والاستعمار وقديماً بان الشاعر يقول « السيف اصدق انباء » من الكتب » فاذا ارادت امة ان تفتح بلداً اخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف اما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد اولاً ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والامثلة عَلَى ذلك كثيرة

وقد ادعى بليو صاحب البعثة والغالب انه على حق فيما ادعاه ان ماوفق الى جلبه من الآثار قد اغنى مكتبة الامة في باريز بالوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما اغنى متحف اللوفر الشير بتماثيل ورسوم ونقوش فاصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في اوربا ويحق لها ان تفاخر بان مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ولا سيما في مقامات قاشار وارومشي البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الاسلامي الى هناك وانه رأى جميع اهل التركستان من اهل الاسلام واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الاماكن المطروقة اذ كانت تعبت بها ايدي المتعصبين منهم

وقال انه رأى اسرء الحظ ان قد سبقه الى ارتياد تلك الاصقاع اناس من الالمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى ان اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالاً بوذياً صغيراً بين الصناعة اليونانية والبودية حريٌّ بان يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة والغربية وظفر في قاشار تحت انقاض احد المعابد في طبقة كثيفة بمخاعوطات هندية فاحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المعاور ووصف تلك البقاع بانه لاشجر فيها ولاعشب مع انك تمشي فيها الوقام الكيلومترات الاله الا في بعض الواحات . واكثر تلك الاصقاع جبال شائعة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل الى الاربعين درجة وفي الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد في ايدي اعضاء البعثة متى ارادوا ان يقيدوا آثار بعثتهم وقد اخذ احد اعضاء البعثة صورة

طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تعني المتحف الطبيعي ربصوور كثيرة عرضت بالقانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بانفسهم الى تلك الاصقاع النائية .

هذه المحاضرة الاولى التي تكرب بها جسمي وتأثرت عواظي وسمعت بها مهانة أمتي بأذني . والمحاضرة الثانية القاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسيين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو اول اخصائي في سياسة الشرق ولاسيما دولتنا بقلب القلم بين اصبه كما تشاء حكومته . حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية القاها على طلبة تلك المدرسة العالية من يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم اسمع من العرب ولا من العجم ابلغ منه لم يتم ولم يعطس ولم يكرر وقلم رأيت انساناً درس موضوعه واعده المواد التاريخية والمستندات اكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجيبي بمعامله على هذه الدولة اكثر من عجيبي بذلاقة لسانه فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولاسيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول في الحروب الصليبية قد اتى عليها زمن حلفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسيين ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم تر خيراً لها من تلك المحالفة نزعت يدها من يد حليفها ثم عادت فرنسا فبهتت بابنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس لان مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وافاض في نشأة الامتيازات

الاجنبية في البلاد المصرية والعثمانية وقال ان فرنسا في كل دور من ادوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وان لها اليد الطولى في المسألة الشرقية اي استقلال بلاد البلقان واليونان وانها لا تقصر كل حين في بتر عضوم اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى

فيا اخواني وياسادتي اسمع عثمانى هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمدأ وحسرة وتسود الدنيا في عينيه ؟

هذا بعض ما يعمد الغرب للشرق فما ذا يعد الشرق للغرب ؟ نحن يا قوم لانحفظ كيانتنا ولا نحفظ بلغتنا وديننا وآدابنا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاثلوننا به . واعني به سيف العلم . نحن يقضى علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لاستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها

رأيت الدولة بعد انقلابها الاخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس اوربا ولا سيما في مدارس باريز فقد رت عددهم قليلاً جداً بالنسبة لمجموع هذه الامة . واني لاجل ان اقول لكم ان عدد الطلبة البلغاريين في روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيكا وانكلترا اكثر من عدد الطلبة العثمانيين واياكم ان تظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهم الافراد شأناً عظيماً في هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال ابيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد اتى على آخر فلس مما عنده وهو مقنبط بما صنع لانه احرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم امته وبلادها

نحن مقصرون كل القصور في ارسال ابنائنا الى ديار الغرب يلتقطون
درر العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى اكثر العثمانيين
قصوراً . ولقد احصيت جميع من يدرسون من ابناء سورية في اوربا على
نفقة الحكومة او على نفقاتهم فلم اقدر ان اوصلهم الى ثلاثين طالباً اكثرهم
يدرسون على نفقتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز
سكائه الثلاثة ملايين . هذا من سورية ارقى البلاد العربية وما اظن احداً
من ابناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الاقاليم
العربية يدرس في مدارس اوربا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً لخمس عشرة
مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك
من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخود هم كاد يصدق به علينا حكم
الغريب . واني لارجو ان لا تكون اقوالنا اكثر من افعالنا فان الكلام لا
اثر له بقدر الفعل . نريد معاشر العرب ان نجاري الامم الراقية بل سائر
العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الاقل في . ضمائر التعلم ؟

نتناغى بالوطنية ونندب حظ اللغة العربية ونحن ابناؤها الذين نعقها
ولا نتعلمها . اليس مما يزعج ان يخاطب العربي اباه وامه واخاه وصديقه
بغير لفته الاصلية ؟ يعمل ذلك لا يمتحن على تلقف غير لفته بل لانه لا يعرف
ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون في الاكثر ممن يفرض عليهم
فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشرعيته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد
اذالم اخطبهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها . انا ان كنت

اريد الاطلاع على مجد آبائي واجدادى أتمكن من ذلك بدون دراسة
ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا الا باللغة التي كتبوا بها ؟ اقول هذا
وانا آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا ابالي اذا
قلت ان فيه العار والشنار .

ايزهد سلاله العرب الاكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون اكثر من
علماء العرب انفسهم ؟ ايزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل
العجمي في الستين من عمره . واعني به الكنت دي ساردنج الفرنسي . هذا
الرجل من اهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيراً في طهران عن الملك
لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً في السفارات وآخر وظيفة له
رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في
قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ
اشهر ان يدرس اللغة العربية للإطلاع على حضارة العرب ومدنياتهم الباهرة
فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشل افندي بيطار وانشأ بتخرج به فقطع
شوطاً في التعلم واذ كانت الدراعي تضطره الى المقام في قصره في سويسرا
اكثر من باريز وكان استاذة لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه
بلمس منه التماس التلميذ من استاذة ان يعث اليه بدروس عشرين يوماً
حتى لا يضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل
فاذا آب الى العاصمة يعاود مابداً به .

هذا الرجل على ابواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول ان يتعلم لغة
شرقية لاعهد له بمعرفتها . او ان يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدينة اهله
وشبان العرب انفسهم يترفعون عن ان يقضوا ولو بعض اوقات فراغهم في

إحكام لنهزم . هذا هو مثال صغير من امثلة المهم في الشرق وامثلتها في الغرب فهل فيكم باشباب المستقبل وقررة عيون العثمانية العربية من يمشي على اقدام هذا الشيخ الفرنسي حتى لايجي . علينا وقت نضطر فيه ان نأخذ اعتنا بل ديننا عن اوربا ونكون تحت وصايتها حتى في امس الامور بنسا واعلقها بقلوبنا ؟

كل مانراه من همم الغربيين ومتانتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فانتم وامثالكم شباب هذه الامة في ايدي اقتداركم ان تجدوا لها شبابها اذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث ليري بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقاؤنا وسعادتهم ليعلم اني لا اغالي فيما اورده لكم بل انني عاجز عن الوصف والتعريف . ولا يقنع في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لا يتيسر الا لكبار الاغنياء . فالعيش في معظم البلاد الاوروبية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبغروت والمدارس رخيصة اجورها ولا يكاد يكون لها اجور ومنها ماجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على احد فيما احسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده

يابناء قومي ويازهرات أمتي ! أليس من العار ان تكون بلادنا التي لا تميش الا بالزراعة ولا تحب الا بالزراعة خالية من عارفين بها على الاصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في اوربا سوى طالبين اثنين احدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من اعمال البلجيك وهو رفيق بك ييضمون من بغروت والاخر في كرنبون من اعمال باريز في مدرسة كرنبون الزراعية

واسمه مصطفى افندي الكيلاني من حماة . كلاهما من ابناء الاعيان ولهما اراض ومزارع فنعا عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في ابناء سورية بل البلاد العربية احد من ابناء الاعيان يملك اراضي وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثار ولكن محبي الدرس قلائل ! هذا في فن الزراعة فمتي يقوم منا اناس لتعلم الكهرباء ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الاوربيين

زرت مدرسة كرنبون الزراعية وهي على مسافة ساعة من باريس فرائت شعارها مكتوباً بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه : « الارض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتمرون هذا الفن فيما ارى . فان كما يختلف في البدييات فمتي تنفق في غيرها ؟

زرت كرنبون ورأيت بها ان عبد القادر الكيلاني يلبس مشاح الزراعة ويدرس كما يدرس ابناء الاعيان في فرنسا ويحاربهم في ذكائه واطلعتني على ماني مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية وحدائق لغرس النبات والبقول وغابات للزراعة والانتفاع وادوات للعمل وحرث الارض وكرثها

رأيت كل هذا واكبرته وقلت في نفسي لو اخذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيين فيها وتربتهم تلاحم تربتنا واقاليمهم اشبه باقاليمنا لاغتنينا غنى يفتينا عن الهجرة ونطلب الوظائف الانتكالية فقد ذكروا لي ان خروفا علفته ادارة المدرسة ستين على الطريقة العلمية فبيع في احد المعارض بسبعين ليرة . فابن خرفانا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات . مهبها علفناها

يجهلنا وبساطتنا واطمانها السحيم المقشر او الشيح والقيصوم والعرار
والعرعر

ولكن الآمال معقودة بان نعلم خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا
على اصولهم ونربي عقولنا على مناهجهم ونطبع دوايننا وماشيتنا بحسب مستهم
فيكون اذ ذاك ابناء عبد القادر في التوفر على زكاة التربة في نفهم لهذه
الامة على مستوى جدم الذي زكي النفوس في عصره . وتزكية التربة لانتقل
عن تزكية التربية والمال واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي اوصي ببناء الاعيان وغيرهم الى التخرج
فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدايها وتتملاً جيوننا بعد فرغها والمال مبدأ
كل عمل وفاقحة كل ارتقاء مادي وادبي .

نحن لانرقى الرقي المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلاً في
شقشة الأسن والنثراريات المجردة . ومن جملة المدارس التي زرتها في
فرنسا وتأثرت ايضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الاز . زرتها
بدعوة من صديقي مرسي افندي محمود احد كتاب مصر فكانت زيارتها
وزيارة مدرسة كرنيون من اسعد الايام التي قضيتها في ارض الفرنسيين
واني احب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول :
قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس
درس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الالمان والانكليز والاميركان
وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيين منها ووضع
لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على
هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي نقل الى

العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله اناس من ارباب النيرة على ارتفاع بلادهم والاهتمام باستقبالها فكانوا يعطونه بالملات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية ابناء الفرنسيين على الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة بروش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى في اقليم نورمانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى في ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهي التي اريد ان احدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة وهي على نحو ساعة من باريز الى الشمال في مقاطعة الازوف فيها مافي سائر بلاد فرنسا من انواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الغنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفي قصر الملوك دي لاروشفو كول الواعظ المشهور صاحب الكلمات المأثورة الذي أسس بنك التوفير في فرنسا في اواسط القرن التاسع عشر قامت هذه المدرسة العملية . وقصره هذا في ارض مساحتها مائتا هكتار اي نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها الا دائرة حشمه اما دائرة قصره فقد اتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة في تلك الدائرة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها .

في هذه البقعة الجميلة الواسعة بل الابدعية الكبيرة والخاصات الفخمة التي حوت الغابات والبروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسيون واكثرهم من ابناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتغاليين والاميركيين

والمصريين . يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة وقد رفعت عنهم اكثر القيود التي تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على احدثهم ان يركض ويرفع صوته في المدرسة او في حجر الدروس وان يلعب في الاماكن التي هي ممر لآخوانه وان لا يخرج من المدرسة ولا يركب في قارب في الغدير بدون رخصة اولا وان لا يتناع اي شيء كان من المدينة بدون استئذان وان لا يدخل جرائد ولا كتباً الا اذا وقع عليها المدير ولا يدخل وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومى الخميس والاحد وان لا يبحث بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وان لا يتكلم بعد ان يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل ان يستيقظ رفاقه صباحاً وماعدا ذلك فهو حر ان يلعب اللعب الذي يختاره في الاوقات التي خصصت لذلك منذ الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف انه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه لمدرسة الا كذلك . والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيول بلا وهو فرنسوي لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم في البلاد . وفي المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة . ورئيسة المدرسة الآنسة باري من اقرباء اديمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين في التربية ومن اولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنتان المانيان

ويقسم ثلاثتها بحسب اعمارهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار

الا في بعض ساعات النهار وهذه المدرسة تمد التلامذة لنيل شهادة
البكالوريا او العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بهارأس التلميذ بالمواد
النظرية وهي عن العلم العملي بمعدل . فالمدرسة تربى الارادة والعين والذوق
واليد والجسم اكثر مما تربى الذهن والذاكرة

واسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في
التعليم ويلاحظون الدروس ايضاً ولا يراجعون التلامذة في ماتعلموه
خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفي لذلك ويتولى الاولاد بانفسهم
امور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لاتروق اكثر
الاولاد هذه الطريقة خصراً وأكثر من فيها من ابناء الاغنياء والامراء
اعتادوا ان يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من امورهم مايتابعون هم
عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والفرق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره
استاذ ويمهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى
وتدعيم الاحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها وعلى الطلبة ان
يحضروا ثلاث جلسات في الاسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة
اساتذة في هذه الالعاب . وفي المدرسة دار لتمثيل كما فيها ميدان للعب
السيف ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم اشبه بمكتب رجل منه
بمطبخ تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق تشاف يتصرف فيها
كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية اكثر منها نظرية
فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي احب الى قلبه كالزراعة
والنجارة والحداة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها

وذلك بنظارة اساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليمتد بذلك على نفسه فاذا عاد الى اعلمه يستطيع ان يصنع بذاته عملاً من مثل ذلك فلا يكون فرق بين ماعمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى اكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتي يسهل عليه كل جهاد في حياته فان الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الحلاء سواء كانوا مشاة ام ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعب النهار

وتمتاز هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم او بعضهم الى البلاد المجاورة كالبلجيكا وهولاندا او غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الاحوال التي كثيراً ما تصادف الانسان في حياته وذلك ايضاً ليحتملوا بصبر وحسن خلق مع مكاسات الوقت ونكد الايام وتنوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المولفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة ايام وكل من حسنت اخلاقه ودروسه يرحل به ايضاً كل ثلاثة اشهر مرة او مرتين يوماً او بعض يوم الى مكان بعيد والمدرسة في الصيف شهران ايضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوماً وتستوفي المدرسة اجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك اكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع اجرتها على حدة ٠ وهو مبلغ كثير بالنسبة لاهل بلادنا ولكنه لا يستكثر

في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربى الحواس بالعمل اكثر من تربية الذاكرة حدثني احد اساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس ان تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى اقبلت اوضاع الدروس والرياضات الى ما يشبه الاوضاع الفرنسية لان ماتوهمه ديمولانس من انه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً - مات منذ نحو ستين - لرجع عن كثير مما نعاى على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسبباً في ضعفها . وهو قول حق سديد لان ما يوافق امة لا يطبق بالحرف على اخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في اوضاع الامة على ان هذه الغمة قد افادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسية مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها دون التربية الانكليزية السكونية من وجوه وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة

تقدم ان تلامذة مدرسة ليا نكور هم من الفرنسيين وخليط من البرتغاليين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا واسيا كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث واني لا اذكر انني حضرت خطبة اودرساً او مجلساً علمياً ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الاورأيت الفتيات سبقني الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات والمانيات وبلقانيات وبولونيات . والبولونيات ^(١) اكثر الفتيات الاجنبيات في فرنسا واكثرهن عناية بتعلم

(١) شاركت النساء الرجال في اورباني كل عمل من اعمال الحياة وفي فرنسا شارك الرجال في الامور الدهنية ايضاً وثلاث ما ينشر في فرنسا من الكتب هو من افلام الكتاتبات

اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها الا فرنسوية لكثرة اتقانها ل لغة الفرنسية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لفرنسية ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا اكثر النساء الاوربيات تفانياً في احكام ملكة لغتهن وحرصاً على آدابها وتلقينها

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم اولادها لغتهم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجمعهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجبل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء الدوما الاولى كان من البولونيين ان فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء اربعة آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالمة والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم اساتذة ولا اعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وان عنت بتعليم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ باغتها

والشاعرات وكثيرات منهن بكتبن ويحندن كالرجال مثل مارسل تينبير مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دي نوابل والعقيلة دي رنيه امرأة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومريم هاري صاحبة كتاب فح البيت المقدس وعشرات امثالهن من المشهورات . والمنافسة الادبية بين الجنسين النشيط واللطيف على اتقيا في فرنسا حتى قال لي احد كتابهم انه سيجي يوم على فرنسا لا يبقى لكتابتها وجه للعاش الا ان يطهروا في مناظير الهواء فقط وما عدا ذلك فالتساه بتولينه بدلتنا . ولعل من يسبح في اوربا بعد عشرين سنة يشاهد ما لم يشهده الآن من الارتقاء المادي والادبي فقد ساس الشيخ رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسيليا الى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغبط بما رأى وساح احمد زكي بك في اوائل هذا القرن فركب القطارات في اوربا جمعا . وسنحنا نحن اليوم فرائنا ما لم يكن بمهد من السيارات الارضية والطيارات الهوائية والمؤلفات في العلوم والصناعات الادبية فماذا يشهد اولادنا واحفادنا بعدنا ياترى ؟

ووطنيتها احتفاظاً اسأل الله ان يرزقنا نحن بعضه حتى انها اذا تزوجت من اجنبي
لا تثبت ان تصبغ اولادها بصبغتها بحيث اضطر بسعرك ان يسن في عهده قانوناً
يحظر فيه على الضباط الالمان ان يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له ان الوطنية
الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي اصاب مملكة روسيا
من ارث صاحب بولونيا

فبالت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية
مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة
السياسية لا يرجي لنا بقا بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن
ان انصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف
كانت حالة سويسرا والمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية
والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاقد ويعرف ان المركب الكبير
يستحيل ان تأتي عليه الانواء بقدر ماتضر بالصغير فقد يفرق هذا او يستغرق
في غيره ولا من يسمع به

تعلمنا اوربا واميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات
الجنسية فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة اوربية
واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة اميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة
صفراء من اليابان والصين واحدة افلسنا نحن يا ابناء العثمانية احرياء بان نزيد
في تكافؤنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفهم بسعي العقلاء منا

طال المقال وبنت اخشى عليكم الملل فهل تأذنون بان اختتمه بجملة واحدة
للمقارنة بين اخلاقنا واخلاق الغربيين وهي الاخلاق التي كانت من
اعظم الوسائل في ارتقاءهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاطنا وذلك انني

تبينت بالاختبار ان الافرنج اكثر تفكراً منا في مصادر الاحوال ومواردها
فهم لا يقدمون مثلنا على امر قبل ان يوقنوا من انفسهم الغناء فيه فالصانع في الغالب
لا يتطال الى ان يكون سياسياً والمحامي لا يعمل في الزراعة وهكذا اختص
اهل كل طبقة بطبقتهم وتفرّد كل عالم بما يعلم ولم يتعدّه فالاختصاص او
الاخصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي
كانت واسطة انحطاط الشرق

الغربي يفخر بانه لا يعرف غير ما تعلمه في مدرسته وحصله من حرفته
ولكنه تعلمه فبرز فيه واحاط باطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية . اما
نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك
الغربي يهجم نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك
جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤونه وحضارتهم فخرة خالدة وكانت
مصاننا ومعاهدنا وسائر اعمالنا مختلفة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها اول
مرة فاذا ما ذهب تذهب بذهابه

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع
بكل شيء ونحن من عادتنا ان نهزأ في الاكثر بكل شيء

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وامته بالتدريج بحسب سنة النشوء
في عالم الكون والفساد ونحن نحب ان نطفر طفرة في اصلاحنا والطفرة محال
لان سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند . الغربي يحب النظام حتى صار ذلك
طبيعة ثانية له ونحن لا يحسن النظام ولا التنظيم . الغربي معتدل على الاكثر
في عامة احواله ونحن اميل الى الافراط او التفریط . الغربي عبد الواجب ونحن قلما
نقوم بفرض او واجب فالغربي كما احسن تقسيم الاعمال والاخصاء فيها

احسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جيد ولكن في اوقات الجد وهزله هزل ولكن في اوقات الهزل ونزته نزهة ولكن في اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي وبالاأسف ليس كذلك .

احسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماء على النفس وانكار النفس فهو يعتمد على كفاءته اولا ثم على محيطه وامته وقد يهتم في الاكثر بمصلحة امته اهتمامه اوعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راقية امة برأسه وامة تتألف من افراد هذا حال سوادهم الاعظم ينسبط ظل عمرائها ويمتد على الارض سلطانها . فالله اسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لايرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية فطلاب المدارس العالية هم ولاجرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار انفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها عليكم امتمكم نضر الله وجوهكم ويبيض بكم وجوهنا



سير العلم والاجتماع

الدرس في النزهة

اعشادت بعض المدارس في الغرب ان تخرج بتلامذتها في ايام معينة من الاسبوع الى الضواحي تدرسهم في كتاب الطبيعة بعيدين عن الدفاتر والكتب وجدردان صفوفهم مايحرق حواسهم من رقهاو يتره عقولهم من اعبائها ويعلمهم معالم بلادهم وبجاهلها وهذا ما ساء احد علماء الترييه بمدارس النزهة وليست هذه المدارس عبارة عن نزهة بسيطة يهتم فيها التلامذة والاساتذة على وجوههم كما في نزهات المدارس بل انها نزهات هي الى الجسد أكثر منها الى الهزل وخطتها واسعة لانها تجمع بين الولد والارض والحياة وتعلمه النظر والتبصر والتفكر والشعور بالحقيقة وجمال الموجودات حيوانات كانت او جمادات وتوقفه